

حديث.. مع الشباب

في تحقيق صحفي تقول إحدى الباحثات:

(إن صلة الرجل الفرد بعدد من النساء من الأمور التي تبت فيها الأحوال الإجتماعية . فالنسبة - في رأي فضيلة الشيخ الغزالي - بين عدد الرجال والنساء . . إما أن تكون متساوية . . وإما أن تكون راجحة في إحدى الناحيتين . . فإن كانت متساوية . . أو كان عدد النساء أقل . . فإن تعدد الزوجات لابد أن يختفي من تلقاء نفسه . وستفرض الطبيعة - ساعتها - توزيعها العادل قسراً!

أما إذا كان عدد النساء أربى من عدد الرجال . . فسنكون إزاء واحدة من ثلاث:

- ١ - إما أن نقضي على بعضهن بالحرمان حتى الموت!
- ٢ - وإما أن نبيع اتخاذ الخليلات، ونقرّر جريمة «الزنا»!
- ٣ - وإما أن نسمح بتعدد الزوجات . ولأن المرأة - قبل الرجل - فيما يرى الشيخ الغزالي - تأبى حياة الحرمان، وترفض فراش الجريمة والعصيان . . فلم يبق أمامها إلا أن تشرك غيرها في رجل يحتضنها . . وينسب إليه أبناؤها . . ولا مناص بعدئذ من الاعتراف بمبدأ «التعدد» الذي صرح به الإسلام شريطة أن يتحقق العدل . . فإن لم يتحقق العدل . . فلا تعدد هناك .



قلت ذلك للفتى المتحمس . . والذي وقف - يرضي غروره - زاعماً أن التعدد هو الأصل . .

ولما كان من المحبين للشيخ الغزالي . . فقد حاولت إفحامه بوجهة نظر الشيخ الغزالي تلك!

وإذا كان هناك من يرفض التعدد منساق وراء هواه فقد نجد أنفسنا أمام: تفريط . . أو إفراط . . يتقاضان الاقتراب من الآية الكريمة . . مستنيرين بما قرره المجربون . . فلعل ذلك مما يحسم القضية أو يكاد:
يقول الله (عز وجل): ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمِيلِ فَتَدْرُواهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء: ١٢٩]



والآية الكريمة تخاطب الناس جميعاً . . والأزواج منهم بخاصة . . وتشمل شمولاً أولياً منهم:

أولئك الراغبون في التعدد . . حتى يراجعوا حساباتهم . . التي قد تنتهي بهم إلى صرف النظر عن فكرة «التعدد» إيماناً منهم بأن أحداً لن يجد الراحة عند أحد . . وإنما الراحة هناك عند نفسك الراضية . . وقلبك الواسع . . ونقترب من الآية الكريمة متأملين مسترشدين بما قاله الثقات من العارفين: يقول (عز وجل): ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ﴾ [النساء: ١٢٩].



الآية الكريمة تدل على اهتمام الإسلام بالواقع . . لا واصفاً . . وإنما كاشفاً عن الأسباب . . ثم محاولة علاج الانحرافات . . أما نحن اليوم:
فنحن فقط نحبر الصفحات عن التعدد وزسابه . . دون أن نقدم العلاج . . إنما فقط منساقون وراء أهوائنا التي استبعدتنا حين أبعدتنا عن الفهم المصحح .

يقول المفرضون:

- ١- أباح السلام التعدد
- ٢- ثم اشترط فيه العدل.
- ٣- ثم حكم بأنه غير مستطاع؟! ولكن الصحيح زن يقال:
المطلوب هو: العدل المستطاع وهو:
المساواة في الحقوق والواجبات..
أما عدل القلوب.. فغير مستطاع.

•••

من آثار التعدد:

إذا كانت الطبيعة من حولنا تنطق بلسان الحال:
إن الورقة تسقط.. وتبقى الشجرة.. لتجدد شبابها في ربيع قابل..
إذا كان هذا هو منطق الطبيعة.. فإنه وفي العلاقات الإنسانية.. يكون
الزمر بالعكس:
فبعض الأزواج يرغب في تجديد الفراش منطلقاً من رجولة متسلطة..
أو من فحولة جائرة: يقول:
(إن الحياة قد كلفت الذكر بأن يمد الحياة.. ولذلك جاء قوياً.. أكبر
حجماً.. أقدر على المطاردة. والمنافسة والمشاجرة).



مظاهرة سلمية في بيت النبوة

يقول الله (عز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجَكُمْ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُمْ وَأُسْرِحْكُمْ سَرَاحًا جَمِيلًا * وَإِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

قصة نزول الآيتين:

الآيتان الكريمتان أمر للرسول (ﷺ) بالشفقة على أحق الخلق بها وأهلها وهن: زوجاته (ﷺ). . . وذلك عندما اجتمعن فقررن المطالبة بزيادة النفقة بعد ما كن صبرن على شطف العيش زمانًا طويلًا.

والقصة كما رواها الإمام أحمد عن جابر (رضي الله عنه) قال: أقبل أبو بكر (رضي الله عنه). . . يستأذن على رسول الله (ﷺ) والناس يبابه جلوس والنبى (ﷺ) جالس فلم يؤذن له.

ثم أقبل عمر (رضي الله عنه). . . فاستأذن. . . فلم يؤذن له. ثم أذن لأبي بكر وعمر (رضي الله عنه) فدخلوا: والنبى (ﷺ) جالس وحوله نساؤه وهو (ﷺ) ساكت.

فقال عمر (رضي الله عنه): لأكلمن النبى (ﷺ). . . لعله يضحك فقال عمر (رضي الله عنه) يا رسول الله لو رأيت ابنة زيد - زوجة عمر - سألتني النفقة أنفًا فوجأت عنقها.

فضحك النبى (ﷺ) حتى بدت نواجزه وقال: «هن حولي يسألنني النفقة» فقام أبو بكر (رضي الله عنه) إلى عائشة ليضربها.

وقام عمر (رضي الله عنه) إلى حفصة: كلاهما يقولان: تسألان النبى (ﷺ) ما

ليس عنده؟! فنهاهما الرسول (ﷺ)، فقلن: والله لا نسأل رسول الله (ﷺ) بعد هذا المجلس بما ليس عنده.

قال: وأنزل الله (عز وجل) الخيار وبدأ بعائشة (رضي الله عنها) فقال: «إني أذكر لك أمراً.. ما أحب أن تعجلي فيه.. حتى تستأمري أبويك» قالت: وما هو؟ قال: فتلا عليها ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ﴾ الآية.. قالت عائشة (رضي الله عنها): أفيك أستأمر والدي؟!

بل اختار الله (تعالى) ورسوله وأسألك ألا تذكر لامرأة من نسائك ما اخترت. فقال رسول الله (ﷺ): «إن الله (تعالى) لم يبعثني معنفًا ولكن بعثني معلماً ميسراً. لا تسألني امرأة منهن عما اخترت إلا أخبرتها».



ولنا هنا وقفات:

١- إن الناس أبناء الدنيا.. فلا جرم أن الناس يحبون الدنيا.. وزوجاته (ﷺ) ناس من الناس.. فيهن رغبة في الدنيا ولهن تطلع إلى متاعها.. ولو اختفى هذا الدافع فزهدن في الدنيا زهداً مطلقاً لجاز لكل امرأة بعدهن أن تتعلل في تعلقها بالدنيا.. بأن زوجاته (ﷺ) لم يكن بشراً.. بل كن ملائكة يحفظن.. ولا يقاس عليهن من حيث يستحيل على البشر أن يرتفعوا إلى أفق الملائكة. فلما طالبن بزيادة النفقة، دل على أنهن من الناس.. فيهن ما فيهم من تعلق بالدنيا.. ورغبة في الاستمتاع بها.. وإذا كان هناك من فارق فهو: أنهن يطالبن حين يطلبن.. لا عن تعنت.. وتحد.. وإنما الأمر على ما قيل: أبت السماوات والأرض إباء إشفاق لا إباء تكبر وإشفاق!!

٢- ولاحظ موقف والد الزوجة في شخص أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما).

إن انحياز الوالد للزوج . . إنما هو لحساب الزوجة أولاً وأخيراً . . من حيث كان ترضية لزوج يأسره الجميل . . فيهب للدفاع عن زوجته . . أمام أبيها . لا كما يحدث اليوم من دفاع والد الزوجة عنها بالحق وبالباطل بما يزيد القضية تعقيداً!!



درس في التربية:

٣- كان في موقف أبي بكر وعمر (رضي الله عنهما) ما يكبت في صدر الزوجة رغبة فطرية، كبتاً يؤذن بالانفجار من بعد . . أو تتسرب به العقد النفسية في الأعماق . ولكن الرسول (ﷺ) مع ترحييه بموقفهما يتصدى للزعة الكابتة من قبل الشيخين ، ثم يفسح الطريق أمام الرغبة الفطرية لتعبر عن نفسها . وتلك واقعية الإسلام التي لا تواجه الدافع المنساب من أعماق النفس يطلب الإشباع ، حتى لا يرتد حسيراً ليكون من بعد عقدة نفسية تنتهز الفرصة المواتية لتصفى حساباتها .



ودرس في الدعوة:

٤- وإذا سولت الغيرة المشروعة لعائشة (رضي الله عنها) أن ترجو كتمان اختيارها عن بقية أمهات المؤمنين لتبقى في الطليعة ودائماً فإن الرسول (ﷺ) يؤكد أنه داعية إلى الله . والداعية ميسر لا معسر ومن صميم وظيفته أن يعين المدعو على الالتزام ليزيد المهتدون واحداً . وما أكثر الذين يحاولون وضع أسئلة الامتحان معقدة راغبين في أن تكون شخصياتهم مرهوبة: والمطلوب منهم أن ييسروا . . لا أن يعسروا!!

من الفرش.. إلى العرش

يقول (عز وجل) في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزُوجَكِ إِنْ كُنْتُمْ تُرَدُّنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا...﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

من مقومات الجندية الإسلامية أن يكون للقيادة المؤمنة عون على أمر الله:

لقد أحس عمر (رضي الله عنه) بأن الرسول (ﷺ) يغالب ظرفاً صعباً.. وإذا كان إدخال السرور على قلب المسلم أدباً إسلامياً فكيف إذا كان قلب الرائد الذي لا يكذب أهله؟ إن إدخال السرور عليه يكون أولى.. من حيث كان غمه مانعاً من خير كثير تحرم الأمة منه.. بقدر ما يكون السرور باباً إلى خير كثير.. ثم إن الجندي - عمر (رضي الله عنه) - ينسى همه مع زوجه ليزوب في هم الرسول (ﷺ) وهو ماض على نفس الطريق الذي مضى عليه رفيقه الصديق.. عندما عرض نفسه للخطر فداء الرسول ليلة الهجرة الذي كان الإضرار به إضراراً بالأمة كلها.



التعاون على البر:

لقد تعاونت كل الأطراف المعنية على إثبات أن الحق لم يكن في جانب الزوجات الطاهرات. فاستأنف السفين سيره باسم الله في ظل هذا التعاون وما زلت أذكر أم الزوجة التي أفسدت ما أبرم الرجال من إصلاح بقولها: ابنتي لا تخطئ، وكان من حق قسيمتها أن تقول: لا.. بل ابني هو الذي لا يخطئ! ويتحول الموقف إلى تثق.. ومثق.. وإذن فيستحيل علينا؟؟ أن نتفق!

ذلك بأنه إذا تعصب كل طرف لولده . . وإذا لم يخطئ أحد من الزوجين . . فالذي أخطأ هو أعضاء مجلس الصلح؟! الذين تركوا المشكلة عائدة إلى حيث بدأت . . بل زادت تعقيداً في هجمة التعصب الذي برئ منه أبو بكر وعمر (رضي الله عنهما) . . حيث أثرا الحق على الهوى فكانت في النهاية لصالح ابنتيهما قبل أن تكون لصالح الزوج!

•••

ومن فقه الآية الكريمة:

ولاحظ واقعية الإسلام في عرضه (ﷺ) حين قدم اقتراح إرادة الدنيا . . كما ذكرته الآية الكريمة . . على إرادة الله ورسوله والدار الآخرة . . لا إثارةً للأول على الثاني . وإنما هي الواقعية التي تقدر ميل الإنسان إلى العاجلة . . وهذا حقه . . ﴿إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَيُضِلَّكُمْ شَهْوَاكُمْ﴾ .
أما واجبه فهو: إدراك تكاليف بيت القيادة ونصيبه الأوفى من الصبر والتضحية إثارةً للمبادئ على المنافع .
وكانت خطبته (ﷺ) هي الأخذ بأيدي أمهات المؤمنين إلى التي هي أقوم . .

•••

من مضررات هذه الخطة:

التلميح بزوال الدنيا . . التي هي مجرد زينة: طلاء لا يصبر على البقاء!
والعقل ينأى بنفسه عن الوقوع في شرك الفاني . . والذي يحرمه من سعادة الأبد في دار هي الحيوان .
والأمر أولاً وأخيراً على الاختيار . . وليس على الإجبار . وعلى كل

واحدة أن تختار ما يحلو لها . . وعلى كل إنسان أن يتحمل نتيجة اختياره . .
وحده .



من خصائص الزوج الصالح:

وتبدو ملامح الزوج الصالح الوفي فيما ذكرته الآية الكريمة، فالآية
الكريمة لا تقول: اقبلن . . وإنما تقول: تعالين والمراد هنا أن تكون الحركة
رأسية . . وليست أفقية: حركة إيمانية صاعدة في جو السماء: من الفرش . .
إلى العرش . . بمعنى تعالين . . ارتفعن . . عن وخامة الأرض وطينها فمكان
المؤمن هناك في السماوات العلى .

الأرض ميدان البلابل للترنم والغناء

والقبة الزرقاء ميداني إلى غير انتهاء

أنا سائر بين الصخور وموطني عرش الهواء

لا يبتني الشاهين وكرًا . . إن موطنه السماء

ويبدو الزوج وفي معمعان الأزمة يبدو ثابت الخطو رابط الجأش . .
متحملاً قسوة الموقف كأنه شيء يألفه . فلو اجتمعن عليه جميعاً ما ضره
ذلك . . ولا حرك في رأسه شعرة واحدة .

بل إنه سوف يحسن إليهن مقدراً عشرة الأمس . . غير فاحش ولا
متفحش من مثل ما يحدث اليوم في معارك الفرقاء . . والتي تأكل الأخضر
واليابس . . وإنما هو الإحسان وبالذات لحظة الخطر . . شأن من يترك للصالح
موضعاً . . مبقياً على بقية من الود . . فلعل المياه أن تعود إلى مجاريها حين
تعطي القوس باريها .

إن الزوج هنا كما يقولون: «يشتري» ولا يبيع يحاول أن يسد الخطنى

على الطريق .. فراراً من مرارة الطلاق .. أو الفراق .. إنها صورة الوفاء
يتمثلها الرائد الذي لا يكذب أهله: (ﷺ) .. الوفاء لعقدة النكاح وللميثاق
الغليظ .. وبخاصة في اللحظة التي يتعرض فيها الزورق الصغير للعواصف
الهوج .. فيتجاوزها الملاح الماهر .. ليستقر على الشاطئ الآمن .



أم الزوج بين الحماية والحماية

سقى الله أياماً كان البيت فيها هو سكن العائلة الكبير: الجد والأولاد... والأحفاد... وكانت «الحماة» «والدة الزوج» وكان الحم «والده»... كانا يشكلان خط دفاع... خط «حماية» لزوجته الابن... التي تظل في تقديرهما منطقة محرمة... محظور على أحد أن يقتحمها... أو يجترئ عليها، وحتى الزوج نفسه - وهو ولدهما - كان يعمل لهما حساباً... قبل أن يظلم زوجته!

وقبل ذلك كانت أم العروس تقول لها وهي تتخطى عتبة الدار ذاهبة إلى رجلها... كانت تقول لها: إنك تفارقين أمّاً هي: أنا التي ولدتك... إلى أم... هي حماتك... التي ولدت لك... ولدت لك زوجاً لم تعاشره... في بيت لم تدرجي فيه... فكوني للبيت كله أرضاً... يكن لك سماء تمطر بك بالأمان والقرار... فرصيدك من الخير الذي تفعلين راجع إليك منه الحظ الكبير.

وهكذا كانت الوقاية من مشكلات المستقبل... خيراً من علاجها... فوفى الله (تعالى) الأسرة بما عملت... أماناً واطمئناناً... نجّاه الله (تعالى) به من مثل مصير أولئك الذين يبنون دورهم فوق البراكين... وفي منطقة الزلازل.

مدرسة البر:

إنها إذن مدرة البر: بر الآباء بالأبناء.. والذين يستجلبون به سعادة الدارين.. في الآخرة.. بالثواب.. وفي الدنيا ببر الأبناء.. وفاء بالجميل.. وهي مدرسة لها قانونها وهو: أن يكون والدا الزوج: أباً وأماً للزوجة بمقتضى القانون: ووالدا الزوجة للزوج كذلك.. إلى الحد الذي يؤلف بين قلوب العائلتين في «مصاهرة» تصهرهما.. ليخرجا من تجارب الحياة انصع جوهرًا.. وأصبر على لأواء الحياة.



مدرسة العقوق:

وفي مواجهة مدرسة البر.. تحاول «مدرسة العقوق» أن تفرض وجودها في شخص «حماة» قد تتخلى اليوم عن وظيفة الحماية.. لتصير حمة تلدغ وتلسع.. أو على الأقل حمو الشمس وحموها.. في شدة حرارتها. وقد تشد وطأة «الحماة» مدفوعة بمثل غرور الشاعر القائل:

ونرعى حمى الأقوام غير محرم

حماها علينا.. ولا يرعى حمانا الذي نحمل

وفي هذا الجو المكفهر.. يكثر التطاول.. والادعاء.. فإذا رحلت تفض هذا الاشتباك سمعت من كل طرف عن قيم.. ندعو لها.. لكن لا نمارسها.. وأخرى نمارسها.. بيد أننا لا ندعو إليها!

ومن خلال هذا الصخب.. وهذا الادعاء.. يوافيك من بعيد صوت الزوجة الشابة..

وهي تتغنى خارج السرب بهذه الأبيات:

وهكذا كنت في أهلي وفي وطني
إن النفيس غريب حيثما كانا



موقف المصلحين:

وفي الوقت الذي تخلع فيه الزوجة الشابة آمالها في تحقيق أحلامها . .
يحين الوقت لتدخل الحكماء: من أهلها . . ومن أهله . . في الوقت الذي
صار فيه البيت شجرة من الشوك: تلمسها . . ثم لا تستقر عليها، ثم صارت
الزوجة فيه مثل عقارب الساعة . . تتحرك . . ولكن في الدائرة . . في الدار
لا تتعدها.



بداية العلاج:

وعلى المصلحين أن يدركوا ما يلي وهو: أن «الحماة» أم . . محكومة
بغريزة الأمومة الضاغطة . . والتي لا تستطيع الإفلات من قبضتها، وإذا كان
زوج ابنتها رجلاً يضاف إلى أسرته . . طائراً في منظومة «السرب» فإنها لا
تنسى . . ولا تستطيع أن تناسي أن زوجة ابنها التي أخذته منها طرحت من
مجموع الأسرة واحداً.

ومن أجل ذلك . . فإن مفتاح القضية ليس في يدها . . وإنما هو في يد
الزوجة الشابة - في بعض الأحيان على الأقل - وعليها أن تدرك ما يلي:
أن الإنسان لا يشعر بقيوده إذا تبعه من يحبه . . مختاراً . . فإذا بدأت
المقاومة . . ومحاولة البعاد . . كان الألم أشد ما يكون . . وهذا ما تخطط له
«الحماة» الناشز . . في مواجهة الزوجة العاجزة!!

لقد خطبت لابنها فعلاً . . لكنها لم تكن تتصور أن عقبي الزواج أن

تخطفه غيرها!

إنها ترى.. وتسمع ما لم تكن تحب أن ترى وأن تسمع. وهناك في
أعماقها معركة بين فكرها.. ووجدانها.. بين عقلها وقلبها.. وهي مصرة
على أن تحسم المعركة لحسابها ولو على أنقاض ولدها.. فلنكن منها..
على حذر!!!



نختلف.. وفي النهاية نألف

يقول الله (عز وجل) في سورة الأحزاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأُزَاجِكُ إِن كُنْتُمْ تُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا..﴾ [الأحزاب: ٢٨ ، ٢٩].

يقول الشاعر المسلم في وصف بيت تدبره حرة مؤمنة:
ودونك بيتاً.. قد تحلى بالنهى
كما يتحلّى معصم بسواره
إذا لم يكن في منزل المرء حرة
تدبره.. ضاعت مصالح داره

وقد تختلف الأمزجة يوماً.. ولكن الزوجة الحرة تتنازل عن رغباتها
في مرضاة بعلها. ألا وإنها هذا الغراب الأعصم:
وهو الأبيض الجناحين.. فلا يكاد يوجد في هذا الزمان. وقد أشار
إلى ذلك قوله (ﷺ): «ألا أخبركم برجالكم في الجنة..؟»
ثم قال عن الزوجة المؤمنة الوفية: «ودود ولود إذا غضبت أو أسيء
إليها أو غضب زوجها قالت: هذه يدي في يدك لا أكتحل بغمض حتى
ترضى» [رواه الطبراني]..

وموقف أمهات المؤمنين هنا يذكرنا بهذا الصنف النبيل وما يترتب عليه
من عطاء جزيل. وذلك قوله (تعالى): ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ تُرِيدُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ
فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٩].

يقول الرازي: والأجر العظيم: الكبير في الذات «الحسن في

الصفات»، الباقي في الأوقات، وذلك لأن العظيم في الأجسام لا يطلق إلا على الزائد في الطول وفي العرض وفي العمق. حتى لو كان زائداً في الطول يقال له: طويل، ولو كان زائداً في العرض يقال له: عريض وكذلك العمق.

فإذا وجدت الأمور الثلاثة قيل عظيم فيقال: جبل عظيم إذا كان عالياً ممتداً في الجهات.. وإن كان مرتفعاً فحسب يقال: جبل عال. إذا عرفت هذا.. فأجر الدنيا في ذاته قليل.. وفي صفاته غير خال من صفة قبح، لما في مأكوله من الضرر والثقل، وكذلك في مشروبه وغيره من اللذات.. وهو غير دائم، أما أجر الآخرة: فكثير.. خال عن جهات القبح.. دائم.. فهو عظيم. وهذا الإغراء الواضح الداعي إلى إثارة المستعة الباقية.. نجاة بالأسرة.. ثم بالآمة من الترف وغوائله.. وما يجره عليها من ويلات تدخل بها نار الدنيا.. قبل نار الآخرة.

والموقف في جملته دعوة إلى الصبر على مرارة العيش.. ثم التضحية بالمقدور عليه من المباحات.. ادخاراً لما تحتاجه الأمة من خدمات: يقول الله (تعالى): ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج: ٤٥].

تشير الآية الكريمة إلى لون من الظلم.. ظلم الناس أنفسهم:

أ- حين أهملوا مرافق الأمة فعطلوها. ﴿وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ﴾.

ب- وحين انغمسوا في الترف إلى آذانهم ﴿وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾.

وكيف جر ذلك عليهم الخراب.. فخر عليهم السقف.. ثم كانوا أثراً بعد أن كانوا عيناً. وهكذا يفعل الترف بأهله وهو الداء الذي يراد حماية الأسرة من تبعاته.

قالت السيدة عائشة (رضي الله عنها) مؤكدة هذا المعنى: إن أول بلاء حدث في هذه الأمة.. بعد وفاة نبيها (ﷺ) هو: الشيع، فإن القوم لما شبعوا بطونهم سميت أبدانهم وضعفت قلوبهم وجمحت شهواتهم. فانظر كيف خربت الشخصية أولاً.. ثم كيف كان الجزاء بخراب الديار.. وأي خراب للشخصية أمر من سمن الأبدان.. ومرض القلوب.. وانطلاق الشهوة كالفرس الجموح! فإذا أرادت أمة صلاح حالها ومآلها.. فلتغير نفوسها فإن التغيير النفسي مقدمة للتغيير الاجتماعي ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].



بيضة الديك:

لقد كانت رغبة أمهات المؤمنين في العيش الرافه.. كانت بيضة الديك.. لم يعدن إليها أبداً راضيات بما هن فيه من بساطة فيها الخير كله.. وذلك ما يشير إليه قولهن: (والله لا نسأل رسول الله (ﷺ).. بعد هذا المجلس ما ليس عنده).

وها هي ذي عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) تؤكد أن ما حدث كان هو الاستثناء من قاعدة الرضا بما قسم الله.. وذلك قولها في الموقف الأنف: (إن أول بلاء حدث في هذه الأمة.. بعد وفاته (ﷺ).. هو: الشيع).



مع التوحيدي:

ولنا هنا وقفة مع التوحيدي في «الإشارات الإلهية» يهيب بالمؤمن أن يؤثر الآخرة على الأولى مستعيناً بربه الذي كان رضاه أعظم من كل متاع زهرة الحياة الدنيا.

قال: «اللهم أنت بنا أبصر ونحن على مصالحنا أقصر فرقنا بكرمك
إلى حظيرة القدس.. واسقنا بكأس القبول شراب الأنس، فإنك إن فعلت
ذلك بنا.. لم نظماً بعده أبدا.. ولم نؤثر عليك أحداً».



قبل أن يدفع الأبطال «فاتورة الحساب»

يقول الله (عز وجل): ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا...﴾ [الأحزاب: ٢٨، ٢٩].

استجابت أمهات المؤمنين لنداء الواجب قانتات تائبات.. وكان هذا العود الحميد إلى الحق بعدما تبين.. كان رسالة موجهة إلى بعض الأزواج اليوم «ليوفقوا أوضاعهم» طبق سنته (ﷺ) وبخاصة في تلك البيوت التي حولها الانفعال إلى ساحة للقتال.. أو حلبة مصارعة تنتهي حتماً بهزيمة الفريقين.. فلا غالب في معارك الأزواج ولا مغلوب، وإنما المغلوب حقاً هم الأطفال.. الذين يدفعون «فاتورة الحساب» في قضية ليسوا أطرافاً فيها؟!

ولا نستبعد، الخلاف بين الزوجين أبداً.. لأن الاتفاق على «كل شيء» صلح قصير الأمد!

ولكن الخلاف عندما يكون على عرض الدنيا.. فإننا محتاجون إلى رجل مثل «التوحيدي» لنستمع إلى موعظة منه بليغة.. حبذا لو أنصف الأزواج إلى ما وراء سطورها.. والتي تؤكد أن الحياة بسيطة.. ولكننا نعقدها بأطماعنا.

يقول التوحيدي:

(آه على أقدام كانت تستثقل حمل رقيق النعال، كيف تطيق غداً ثقل القيود والأنكال؟ «القيود الشديدة».

آه .. على جنوب: كانت تستشخن لبس الحرير .. كيف تصبر غداً على مقاساة لهب السعير؟

آه .. على خدود في ظلال الترف .. تتدلل ناعمة .. كيف تكون غداً في أطباق الثرى ساهمة راغمة .. آه على أجساد في حلال الدنيا مصونة .. إذا أصبحت غداً في أثناء الجنادل مهينة مدفونة .. آه على من قد غدا في دروب المعاصي مشتبكاً .. كيف يكون إذا وقف بين يدي الملك الجبار مرتبكاً .. عجيب لقلب سكنه عقل أو اطمئن به فهم أو سنحت فيه فطنة، أو هب فيه انتباه .. أو ألم به رأي: كيف ركن إلى الدنيا جهلاً ورضي بها وطناً .. ووجدتها من الجنان بدلاً .. وغفل عن صنيعها بمن مضى وخلا .. أفلا يعتبر المرء اللبيب بما يرى من تنعيمها وورود الفجائع على أهلها: من علة مفاجئة. أو ميتة قاضية. أو دار بعد ساكنها موحشة. أو حال بهولها مدهشة؟! قد كدر منها المنون .. ما صفا .. وتركها ريب الزمان قاعاً صفصفا.

يا هذا: شمر، وخذ في الجدد .. فالأمر والله حق .. أتدري ما الأمر؟! الأمر هو: الرحيل عن هذا الموضع النابي بأهله .. المزعج .. إلى محل آخر .. إما أن يكون أنعم منه .. وإما أن يكون أنبى منه .. وبين الرحيل والوصول .. وحشة الفراق وبلوغ الروح التراق .. والتفاف الساق بالساق وحشجة الصدور وتسكاب المآق .. يا عاشق الدنيا .. لا تجهلن فيمن جهل .. فكل ما أحيا .. قتل].

ولأن استدبار الدنيا .. واستقبال الآخرة .. عسير لأن الدنيا حاضرة .. والآخرة مغيبة .. فقد شغلت هذه القضية بال الصالحين .. الذين ما فتئوا يلومون أنفسهم على ما قدموا .. حتى قال قائلهم:

قلبي إلى ما ضرني داع
كيف احتراس من عدوي إذا
يكثر أحزاني وأوجاعي
كان عدوي بين أضلاعي

وقال آخر زائداً على هذا:
هذا فـؤادي.. وطرفي
فكيف أحذر يا قوم..
قد سببالي حنفي
من فـؤادي وطرفي؟!

ويعلق التوحيدى هنا قائلاً: صدق الرجلان:

[أما الأول.. فوجد عدوه نفسه فاستصعب الخلاص منه.. ولعمري هو صعب. وأما الثاني.. فجمع بين فؤاده وعينه ثم استغاث منهما، وذكر أنهما قد أضافاه إلى حنفة.. وهذا كله من الكسل.. وإلا لو صدقت النية، وجدت المرة - القوة - وخلصت العزيمة لكان قهر القلب إذا عتا.. سهلاً.. وغض العين إذا طغت قريباً.. ولكن النيات مدخولة، والعزائم ضعيفة.. والتمني غالب.. والنفس مسوفة.. والطباع خوارة.. وهكذا الإنسان إذا وكل إلى حوله الضعيف.. ورأيه السخيف، وقد عصم الله (تعالى) أمهات المؤمنين بما أنزل من آيات بينات.. فكن حجة على كل عاشق للدنيا.. كيف صار عبداً لها لا تقف آمانيه عند حد.. وكلما طلب نعمة كان شأن دنياه التسوييف على حد قول «أبي حنيفة الصوفي» لما قيل له كيف أنت قال: كلما قلت: غداً موعداً.

ضحكت هند وقالت: بعد غدا!

ولترك العشاق.. حيارى في الآفاق.. ثم لنعش مع أمهات المؤمنين.. وكيف تنزل الوحي غصاً طرياً آخذاً بأيديهن إلى الكمال، وذلك

قوله (تعالى): ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبِينَةٍ يُصَافَّ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا * وَمَن يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٠، ٣١].

والفاحشة هنا هي: طلب ما لا ينبغي مما يؤذي رسول الله (ﷺ) وإنما كانت مضاعفة العذاب نظراً لحساسية موقعهن، وعظم مسئوليتهن.



نعمة التوفيق

تعني كلمة «الزوج» المكمل للفرد .
ولا يكون مكملًا إلا إذا كان موافقًا . . وهكذا كانت استعمالات القرآن
الكريم لهذه الكلمة . . والتي تدل على .

التوافق في الطبع . . والمشكلة في الدين . . والموافقة في المزاج .
يقول (عز وجل): ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكَحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضُوا بَيْنَهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ﴾ [البقرة: ٢٣٢] .

وهو خطاب إلى المجتمع يقول له :
إنه إذا كان هناك توافق وتشاكل بين الطرفين . فلا تقفوا حجر عثرة في
الطريق . . ودَعُوا الموافق يلتقي بموافقته . دعوا السالب يلتقي بالموجب . .
ليضيء المصباح !

يوضح هذا المعنى قوله (عز وجل):
﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة: ١٠٢] .
فالتعبير بالزوجة هنا في مجال التوافق بين الزوجين . . وأن محاولة فكّ
هذا الارتباط ظلم .

ويقول (عز وجل):
﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ ..﴾ [الأحزاب: ٥٩]
ومعلوم أن التوافق بين النبي (ﷺ) وأزواجه كان على غاية ما يكون
الوئام . . ومن ثم عبّر . . بأزواجك .

ثم اقرأ قوله (تعالى):

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحریم: ١١].

إنها مجرد «امرأة» .. لأنه لا توافق بينها وبين زوجها في الدين ..

وقد ضربها الله (تعالى) مثلاً .. وهي جديرة أن تكون مثلاً أعلى ..
تتملاه نساء العالمين كنموذج يُحتذى ..

لأنها استطاعت - على ضعفها - أن تثبت على إيمانها وهي تحت هذا
السفاح الطاغية ..

ويقول (عز وجل):

﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾ [التحریم: ١٠].

كلهن .. امرأة .. وليست زوجة .. فالفارق هائل .. والشقة بعيدة بين
الزوجة .. والمرأة ..



وهذا هو الزواج:

هذا هو الزواج الدائر على عنصر الصراحة والموافقة .. أما التسرع في
الإختيار طمعاً في الدنيا .. فلا خير فيه:

لا خير في حُرِّ يجالس حرة
ويبيع قرطيفها إذا هو أعدمًا

[أعدمًا: افتقر].

كما أنه لا خير في حياة كان من ورائها الطمع الذي يحطم جسور الثقة
بين الزوجين اللذين صار أمرهما على ما يقول الشاعر:

ومما أدام الرزء: تكذيبُ صادق

على خيرة منا.. وتصديق كاذب

وفي هذا الجو المكفهر.. ماذا يفعل الطرف الضعيف؟
ماذا تفعل الزوجة التي باتت - وفي بيت الزوجية - ذلك الطائر
الغريب.. والذي يعزف خارج السرب منفرداً؟!
لقد بهرنا المال.. وكثرة الرجال.. ولكن ظهر لنا أنه مامن بستان إلا
وبه أفعى!!؟

إنه الخوف من المستقبل.. وسوف يتحول هاجس الخوف إلى فرع
يحملها على التآمر.. ولو انهدم المعبد على رءوس الجميع.. بما فيهم
أفلاذ الأكباد!



وبنفس القوة نقول مع القائلين:

أحياناً.. يتسرع الفتى في الاختبار.. قبل أن يتعمق في قراءة الواقع:
قد يأسره السميت الهادئ.. والجمال الطاغي.. ثم يلهيه عن الغوص
في الأعماق.

وتكشف لك المعاشرة أنك على بركان يجد متنفّسه الوحيد فيك
وحدك.. وما زلت أذكر ذلك الفلاح الذكي والذي قال لولده المفتون بجمال
مخطوبته:

يا بني: من أجل جارحة واحدة وهي: (وجهها) تتزوجها (كلها)؟!!



إن هذا الوجه الخادع. لهُوَ ذلك «الفخ» المنسوب في الغابة.. وأنت
ذلك الطائر البرّي الذي انزلق إلى مصيره.. بالطعم الذي بهره فأسكره.



ولقد قال الحكماء:

إن البيت والمال .. ميراث الآباء .. أما الزوجة: فمن عند الرب ..
 ويعني ذلك أنها هبة .. نعمة ينبغي أن نشكرها بحسن اختيارها .. وقد لا
 تكون جميلة .. ولكنها تعوّضك بالمودة .. ورعاية حدود الله (تعالى) ..
 ومع الأيام .. سوف تجتمع خيوط الود .. لتصنع حبلاً قوياً يربط على
 القلوب .. أما من لا توافق ، ولا تفارق .. فهذا هو البلاء المبين!
 وقد يشتد حبها مع هذا العذاب .. ولكنه سيفسر في النهاية عن شدة
 الخوف على ضياع من تحب!
 وعندئذ سوف تكون الحياة كزهرة يانعة .. سرعان ما تجف أوراقها كما
 تجف أعشاب الحقول!

•••

واذن .. فاطضرب ذات الدين

ألا ما أصدق ما قيل:

إن المرأة الجميلة .. ليست دائماً فاضلة

أما المرأة الفاضلة .. فهي أبداً جميلة!

